القرافة

وكانت القـرافة من معـالم الفسطاط، وقـد أفاض المقريزى وغـيره فى الكلام عنها فـقد رؤى أن تكون للحاضرة الإسـلامية مقبـرة، ولذلك جعلت بأرض المقـوقس عند سفح المقطم شـرقى الفسطـاط، ودفن فيـها عمـرو بن العاص وأربعـة من الصحابة، وخـصص فى جنوب المقبـرة مكان لدفن موتى الأقباط وظلت مستعملة حتى أيام الفواطم، ثم أخذ خلفاؤهم يدفنون موتاهم فى تربة الزعفـران من القصـر الكبير (خـان الخليلى)، أما الأهالى فـقد ظلوا يدفنون موتاهم فى مقبرة الفسطاط.

وبعد اضمـحلال الفسطاط طغت المقابر على مسـاكن خطة المعافر التى خلت تدريجيًا من ساكنيهـا وعلى مساكن خطة بنى قرافة ومن هنا أطلق اسم القرافة على المدافن بتلك الجهة أولا ثـم عم سائر المدافن وعرفت باسم القرافة الكبرى.

وفى أيام الأيوبيين أنشئت حـول قبة الإمـام الشافعى جملة قـبور أطلق عليها القرافة الصغرى وتضاءل الدفن بالقرافة الكبرى إلى أن عاد إليها فى أيام السلطان الناصـر ابن قلاوون. وأخذ الـناس يدفنون موتاهم بعـد عام ١٣٠٠ تحت سفح المـقطم فيمـا يلى قلعة الجـبل. ثم انتشـرت القرافـات فى شرقى القـاهرة وفى شـمالهـا. بين باب الوزير وباب النصـر إلى باب شـرقى باب الحسينية ومنها إلى العباسية الشرقية.

وكان للقرافة الكبرى خندق حفر حولها وحول الفسطاط وكان ذلك فى عام ٦٥هـ/ ٦٨٥م حـينما خـشى الوالى هجوم مـروان على مصـر من تلك

الجهة، وفى ٨١٥م طمى هذا الخندق ثم أعيد حـفره فى أثناء فترة الشقاق بين الأمين والمأمون.

* * *

حريق الفسطاط

حدث للفـسطاط فى أثناء حيـاتها انقلابان عظيـمان هما قـيام ضاحـية العسكر، ثم مـدينة القطائع وجاءت المرحلة النهائية للفـسطاط عقب ذلك فى مناسبتين كـانت الأولى فى أيام الشدة العظمى فى أثناء خلافـة المستنصر بالله الفاطمى. وكانت الثانية حريق مصر فى وزارة شاور فى أثناء خلافة العاضد، أما المناسـبة الأولى فكانت عندما تمرد الجند وسـاد الاضطراب وحلت بالبلاد المسغبة والمجاعة ولجأ المستـنصر بالله إلى حاكم الشام بدر الجمالى. فكتب إليه سرًا يستقـدمه إلى مصر لتدبير الأحوال، فلما قـدم بدر اهتم بتحسين القاهرة وعـمل على تخريـب الفسطاط. فـقـد أباح للجند وللقـادرين على البناء أن يعمروا ما شاءوا فى القاهرة وغيرها فعمرت وسكنها الناس ولم يبقوا شيئًا فى الفسطاط أو العسكر أو القطائع وتركوا موقعها موحشًا مقفرًا.

أما لامناسبة الثانية فهى حريق الفسطاط الهائل الذى أمر بإضرامه شاور سنة ٥٦٥ لما غزا ملك بيت المقـدس عمورى (أملريك) الديار المصـرية عندما عجز عن الدفاع عنها وأراد أن يتجنب وقوعها فى أيدى الصليبيين.

أمر شاور بإخـلاء الفسطاط وحرقها ويقـول المقريزى: «بعث شاور إلى مصـر بعشرين ألف قارورة نفط وعـشرة آلاف مشـعل نار فرقت فيهـا فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى السماء فصار منظرًا مهولاً. واستمرت النار تأتى

على مساكن مصـر فى اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمـام أربعة وخمسين يومًا.

ومن ثم تحولت مـصر إلى الأطلال المعروفـة الآن بكيمان مصـر، فلما حدث الحريق رحل عمـورى من بركة الحبش[1]، ونزل بظاهر القاهرة مما يلى باب البرقية وقاتل أهلها قتالاً عنيفًا.

ولما جاء صـلاح الدين الأيوبى أراد أن يجمع بين القـاهرة وما بقى من الفسطاط بسور واحد. فانتقلت الحركـة التجارية إلى ساحل النيل حيث كانت ترسو السـفن وتكثر المخازن والمـصانع، وقد قـال ابن سعيـد المغربى إذ ذاك: «وقد نفخ روح الاعـتناء والنمو فى مدينـة الفسطاط الآن لمجاورتهـا للجزيرة الصالحية وكثير من الجند قد انتقل إليها للقرب من الخدمة».

ولقد ترك لنا ابن دقمـاق والمقريزى والقلقشندى إلى جانب ما كـتبه ابن سعيد عن مـدينة الفسطاط فى القرن التاسع الهجرى معلومـات إضافية تتفق فى أن تدهور المدينـة كان يزداد قـرنًا بعـد قـرن وفى العـبـارة الآتيـة لخص القلقشندى المحن التى نزلت بالفسطاط فقال:

«ولم يزل الفـسطاط زاهى البنيـان نامى السكان إلى أن كـانت دولة الفاطميين بالديار المصرية وعمرت القاهرة فتقهقر حاله وتناقص. وأخذ سكانه فى الانتقال إلى القاهرة وما حولها فـخلا من أكثر سكانه. وتتابع الخراب فى

(١) كانت هذه البـركة واقعة جنوب مـدينة مصر بين النيل والجبل وكـانت تطلق على حوض من الأراضى الزراعـية التى يغـمرها ماء النيـل وقت فيضـانه سنويًا. وكانت تشـغل فى الأراضى مسـاحة قدرها ١٥٠٠ فـدان - تعليق الأستاذ مـحمد رمـزى - النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٨١ و٣٨٢.

بنيانه إلى أن بـلغ الفرنج أطراف الديار المصرية فى أيـام العاضد آخـر الخلفاء الفاطميين».

وعلى هذه الحالة تحولت الميناء النهرية والعاصـمة الإسلامية الأولى إلى أكوام من التـراب وتلال من الأنقاض حتى أتاح الله للفـسطاط العالم الأثرى الجليل الأستاذ على بهجت، فكشف فـيما بين عامى ١٩١٢، ١٩١٣م أجزاء كبـيرة من تلـك المدينة البائدة التى لم يتـخلف من بقايـاها إلا جامع عـمرو وأبراج قصر الشمع.

ومن يزور الفسطاط الآن، يرى أنها تنقسم قسـمين: قسم شرقى مجاور للجبـل، وقسم غربى واقع علـى النيل. فأما الـقسم الشرقى وهو الـفسطاط الأصلية التى وقع فيها الحريق فى عام ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م، فكله خراب وأرض مشغولة بالتلال والكيمان، ويـتخلل بعض أجزائًا الحفائر التى عملت للكشف عن بعض دورها القديمة، ولا يوجـد الآن فى هذا القسم من المبانى إلا قـصر الشمع وجامع عمرو، ومن الأمكنة المسكونة خط كوم ابن غراب (كوم غراب الآن). وأما القسم الغربى من الفسطاط فـهو الذى يعرف اليوم بمصر القديمة، ويسميها العامة «مصر عتيقة» ويحده من الشرق القسم الشرقى السابق التحدث عنه، ومن الشمـال المكان المقام عليه الآن قناطر مـجرى الماء المعروفـة بحائط العيون والتى تنتهى من الغرب بسواقى مجرى الماء المعروفة بسواقى العيون بفم الخليج، ومن الغرب مجرى سيالة جزيرة الروضة.

* * *

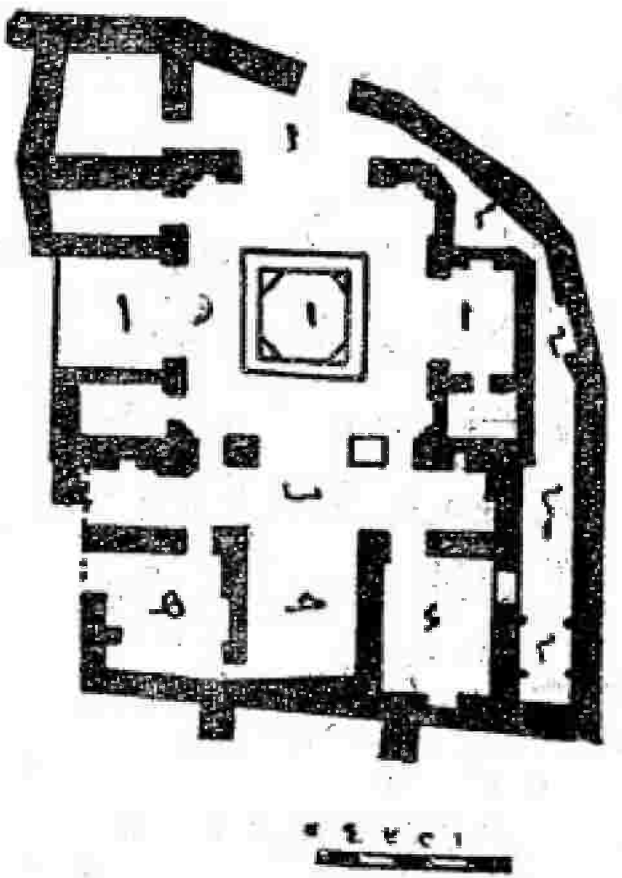

احدى دور الفســـطاط وهى على صغرها من الأمثلة الكاملة المتقنة . « على بهجت »

العلم والعلماء فى الفسطاط

أصبحت مصر منذ دخول العرب إليها مركزًا علميًا فى الدولة الإسلامية. كما هى مركز سياسى، فكان للمصريين شأن واضح فى علم القراءات وكانوا أساتذة القراء فى الأندلس والمغرب. وكان من أقدم علماء الحديث عبد الله بن وهب المصرى صاحب كتاب «الجامع فى الحديث».

وممن نبغوا فى علوم الدين فى المدرسة المصرية فى فجر الإسلام أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة[1]. والليث بن سعد بن عبد الرحمن الأصبهانى الأصل المصرى المولد[2]، وكان ثقة كثير الحديث صحيحه اشتغل بالفتوى فى زمانه، وقال قائل حين مات:

ذهب الليث فلا ليث لكم

ومضى العلم غريبًا وقبر

وكذلك وفد الإمام الشافعى على مصر، وأخذ عنه المصريون طريقته فى المناظرات الفقهية والكتابة العلمية، ولكنه تأثر بمصر وكون مذهبه الجديد فيها وقويت مدرسته بها.

ولد الشافعى فى رجب سنة ١٥٠هـ بغزة، ولما بلغ من العمر تسع سنين كان قد أتم حفظ القرآن كله، ثم جالس العلماء فى المسجد الحرام ليحفظ

---

(١) الفقيه الحضرمى المصرى الذى ولد حوالى عام ٩٧هـ وولى قضاء مصر عشر سنين. ومات بها فى منتصف شهر ربيع الأول سنة ١٧٤هـ (ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١ ص ٣١٣).

(٢) ولد بمصر فى قرقشندة بأسفل مصر (القليوبية) سنة ٩٤هـ، وتوفى سنة ١٧٥هـ. راجع مصر فى فجر الإسلام ص ٣١٧ للدكتور سيدة إسماعيل كاشف.

الحديث وعلوم القـرآن وغيرها، وعرف بـقوة الذاكرة والذكاء المفـرط والفهم السريع، وبعد أعـوام قصد المدينة حيث اتصل بالإمام مـالك وقرأ عليه الموطأ فى أيام يسـيرة وحفظه عن ظهـر قلب. ثم رحل إلى الكوفـة وساح فى بلاد فارس وما حولها من العواصم، وسافر إلى ديار ربيعة ومضر ومنها رحل إلى شمال العراق حتى وصل إلى جنـوب بلاد الروم، وعرج على حران ثم سافر منها إلى فلسطين وأقام فى الرملة أيامًا ثم قـصد ثانية المدينة المنورة حيث قابل ثانية الإمام مالك.

ولم يمض على الشافعى زمن طويل بعـد عودته إلى المدينة حتى جاءت الأخبار من مصر بوفاة الإمـام الليث بن سعد فى نصف شعبان سنة ١٧٥هـ. فحزن لوفاته مالك والشافعى، وأقام الشافعى بعد ذلك فى المدينة أربع سنوات وأشهـرا إلى أن توفى الإمام مالك (١٧٩هـ) ودفن بالبـقيع فى ظاهر المدينة. وكان عمر الشافعى عامئذ ٢٩ سنة تقريبًا.

رحل إلى اليمن وتزوج وكان مثلاً أعلى للحياة الزوجية الطاهرة. وهناك علت مكانته وارتفع قدره فى العلوم والمعارف، سواء كانـت فقهية أو رياضية أو فلسفية أو طبية أو فلكية إلخ، ثم وشى به لدى الخليفة هارون الرشيد الذى أرسل أحد قادته لاعـتقال جماعة من العلويين ومن بـينهم الشافعى ونقلوهم إلى بغداد ثم حـملوه وهو مثقـل بالحديد إلى حضـرة الخليفة، وبعـد حديث دينى دار بين الرجلين أمر هارون بمنحه ألفى دينار. فنهض الشـافعى شاكرًا ثم استأذن فى الانصراف فأذن له وخـرج ووزع المال على المحتاجين الذين قابلهم فى الطريق.

وأقام الشافعى فى بغداد يجالس علماءها فاتسعت حلقة طلابه فأوغر بذلك صدور بعض علماء العراق، ولكن بالرغم من ذلك ازدادت مكانة الشافعى عند الخليفة، وأصبح فى بغداد موضع إكرام أمرائها وعلمائها وسادتها، وعلى رأسهم الإمام ابن حنبل، وفى تلك الفترة أتم الشافعى تأليف كتابه الزعفران.

عاد الشافعى إلى مكة وأقام فيها سبع عشرة سنة يعلم الناس وينشر مذهبه إلى أن تاقت نفسه إلى بغداد فرجع إليها وأقام بها مدة قصيرة، حتى رأى السفر إلى مصر مع العباس بن موسى والى مصر الجديد - فخرج أهل بغداد لوداعه، وفى مقدمتهم الإمام أحمد بن حنبل، فمسك الشافعى بين ابن حنبل ساعة الوداع وقال:

لقد أصبحت نفسى تتوق إلى مصر

ومن دونها أرض المهامة والفقر

والله لا أدرى اللعز والغنى

أساق إليها أم أساق إلى القبر

وفى ٢٨ من شوال سنة ١٩٨هـ دخل الشافعى مصر مع العباس بن موسى ونزل عند أهله من الأزد. ثم ابتدأ فى إلقاء دروسه بجامع عمرو بن العاص، فنبغ عليه كثير من المصريين والمصريات، ووضع الشافعى فى مصر كتبه الجديدة، وكانت نحو عشرين كتابًا منها كتاب الأم، والإملاء الصغير، والأمالى الكبرى، ومختصر الربيع، ومختصر المازنى، مختصر البويطى، وكتاب الرسالة، وعلم أصول الفقه.

أما مذهب الشافعى فهو التوفيق بين النص والقياس، وذلك إذا وجد سبيلاً قويمًا وإلا عول على ظاهر النص من الكتاب والسنة بغير ميل إلى التأويل مطلقًا. وأما رأيه فهو التمسك بالسنة الصحيحة تمسكًا خاليًا من الغرض والأهواء.

وأقام الشافعى فى مصر خمس سنين وتسعة أشهر يعلم الناس العلم ويؤلف كتبه الجديدة وينشر مذهبه بين الناس. وفى نهاية هذه المدة أصيب بمرض البواسير ولما اشتد عليه غالبه الموت فتوفى فى ليلة الجمعة الأخيرة من شهر رجب سنة ٢٠٤هـ (٨١٩م) بعد العشاء الأخيرة.

وكان مركز الحركة العلمية الدينية فى مصر وقلبها النابض فى ذلك العهد جامع عمرو بن العاص مثله فى هذا مثل الأزهر الشريف فيما بعد. فكان جامع عمرو ملتقى العلماء والفقهاء والأئمة، وإليه يلجأ الناس للاستفتاء، وإليه يفد الطلاب لتلقى العلوم التى كانت تدرس فى ذلك الحين، ومنه يتخرج خيرة العلماء والفقهاء[١].

ولقد كان لمصر سبق ملحوظ فى ميدان التصوف الإسلامى. فالمعروف أن أبا الفيض ثوبان بن إبراهيم المصرى المعروف بذى النون، كان أوحد وقته علمًا وورعًا وأدبًا وزهدًا، وهو من أقطاب الصوفية وله فضل كبير فى وضع كثير من التعاليم الصوفية، وإليه ينسب القول بأن الوجد، وليس العلم، هو السبيل الوحيد لمعرفة الله المعرفة الحقيقية.

(١) راجع فصل الحركة العلمية فى كتاب الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف - ص ٣١٤ - ٣٣٦.

ولد ذو النون بأخميم حوالى عـام ١٨٠هـ (٧٤٦م). ويقال أن سعدون الصوفـى المصرى كان مـعلمه ورائده الروحـى. سافر إلى مكـة ودمشق وزار بعض النسـاك. وقد تحدث ذو الـنون عن أسفاره لـلبحث عن سـبل الخلاص قال: «لقد حصلت فى أول أسفارى علمًـا يرضى الخاصة والعامة. وحصلت فى ثانيها علمًـا يرضى الخاصة دون العامة، وفى ثالث أسـفارى حصلت من العلم ما لم ترض به لا الخاصة ولا العامة فغدوت شريدًا طريدًا. لقد حصلت من العلم فى المرة الأولى التـوبة وهى مقبولة لدى الخـاصة والعامـة على حد سواء، وفى المرة الثانيـة وصلت إلى التوكل على الله ومعاملته ومحـبته وهى شئون تتقبلها الخاصة ولا تفهمها العامة - وفى المرة الثالثة وصلت إلى الحقيقة التى تسمو على العلم والعقل فأعرضا عنها ولم يتفهماها»[١].

وكانت المعرفـة هى أهم وضوع فى تعاليم ذى النون، كـما أنه كان من أوائل الصوفيين الذين تعرضوا للكلام عنهـا. فقد قال بأن المعرفة بالله ثلاث، أولاها هى معرفة التوحيد التى هى ملك لكل المؤمنين، وثانيـتها معرفة الحجة والبيان، وثالثتها معرفة صفات الوحدانية[٢].

وكان التاريخ أهم ما ساهمت به مصر فى روضة الأدب الإسلامى. ولا منازع فى أن المرجع الوحيد الذى يستند إليه فى معـرفة تاريخ مصر الإسلامية من بداية الفتح الإسلامى إما هو كتاب «الولاة والقضاة» للكندى[٣] الذى وفق

(١) مقال «ذو النون المصـرى» بقلم الدكتورة مارجريت سمـيث - مجلة الأدب والفن عدد ٣ عام ١٩٤٣ (السنة الأولى) ص ٥٤ - ٦٣.

(٢) توفى ذو النون بمدينة الجيزة فى سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م.

(٣) ولد أبو عمـر محمد بن يوسف الكندى بـالفسطاط فى سنة (٢٨٣هـ - ٨٩٧م)، وتوفى سنة (٣٥٠هـ-٩٦١م) وكان حجة ثقة فى معرفة أحوال مصر وأهلها وأعمالها وثغورها.

إلى طبعه المستشرق الإنجليزى جست، ، وقد نقل عنه المؤرخون الذين جاءوا بعده الكثير مما دونه فى موسوعته. ولا ريب أنه سبقهم إلى الكتابة فى خطط مصر وآثارها وفى تاريخ قضاتها. وقد حذا حذوه فى الموضوع الأول ابن زولاق والقضاعى وابن دقماق والمقريزى والأوحدى والسيوطى ونسج على منواله فى الكتابة عن القضاة ابن زولاق وابن حجر العسقلانى وابن شاهين.

ويوجد مؤرخ مصرى آخر هو ابن عبد الحكم[1] المتوفى فى الفسطاط (٨٧١م) ويعد مؤلفه «فتوح مصر والمغرب» مرجعًا قيمًا لتاريخ مصر الإسلامية، بل وتاريخ العرب فى مصر والمغرب، وهو أقدم مؤرخ لمصر الإسلامية ولخطط مصر.

وكتب بعد الكندى مؤرخان مصريان كبيران، هما الفقيه أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن زولاق الليثى المصرى، والأمير المختار عز الملك المسيحى، وولد أولهما بالفسطاط سنة (٣٠٦هـ/ ٩١٨م) وقد أدرك إنشاء القاهرة المعزية وتوفى سنة (٣٧٨هـ/ ٩٩٧م) وقد عنى بتاريخ مصر وألف كتابًا فى سيرة الأخشيد وكتبًا فى فضائل مصر وفى خطط مصر، وكتبًا أخرى فى سيرة جوهر وسيرة المعز وسيرة العزيز[2].

***

(١) هو المؤرخ أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم كان متضلعًا فى الشريعة الإسلامية، وقد أثار سخط ابن طولون عليه حين رفض الموافقة على قرار الجمعية التى عقدها ابن طولون لخلع ولى عهد الدولة العباسية - انظر كتاب استخدام المصادر وطرق البحث للدكتور على إبراهيم حسن. ص ١٢٧ - ١٢٨.

(٢) الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف: مصر فى عصر الأخشيديين. ص ٣٢٩.

الفسطاط والرحالة

مشاهدات ناصر خسرو

فى طليعة الرحالة المسلمين الذين زاروا مصر ووصفوا أحوالها أثناء العصر الفاطمى - ناصر خسو. فقد خلف وصفًا جيدًا لرحلته يحمل على القول بأنه كان يدون مشاهداته أولاً فولا. وحسبنا أن نشير هنا إلى وصفه القاهرة والفسطاط وكلامه عن حضارة مصر فى عصر الخليفة المستنصر بالله، وعنايته بدراسة الأعياد والحفلات والفنون والأسواق والعادات الشعبية . . إلخ[1].

وقد ترجمت رحلة ناصر خسرو إلى الفرنسية والعربية[2]، وأصبحت

(١) ولد ناصر سنة ٣٩٤هـ (١٠٠٣م) فى بلدة من أعمال بلخ وتأدب على بعض العلماء وقام فى شبابه بأسفار عديدة فى أنحاء إيران وتركستان والهند وبلاد العرب ثم استقر فى منصب كبير فى ديوان السلاجقة بمرو، وظل يعيش عيشة ترف وبطالة حتى عام ٤٣٧هـ (١٠٤٥م) ثم ضحى بمنصبه وبدأ حياته جد وسفر وعلم، فسافر لتأدية فريضة الحج وقام برحلات طويلة فى بلاد الشرق الوسيط بين عامى ١٠٤٥، ١٠٥٢، ولما عاد إلى وطنه كان قد ترك مذهبه السنى وأصبح من أشد دعاة الإسماعيلية والمتعصبين للفاطميين، ولكن السلاجقة لاحظوا خطر هذه الدعوة فاضطهدوه واضطروه إلى الفرار إلى بلاد ما وراء النهر، حيث توفى سنة ٤٥٣هـ (١٠٦١م).

(٢) سفرنامه نقله إلى العربية وقدم له وعلق عليه الدكتور يحيى الخشاب. رحلة تقع حوادثها بين سنة ٤٣٧هـ (١٠٤٥م) وسنة ٤٤٤هـ (١٠٥٢م). مطبوعات معهد اللغات الشرقية، كلية الآداب جامعة القاهرة، ١٩٥٤.

مرجعًا أساسيًا فى دراسة الحضارة الإسلامية فى الشرق الإسلامى فى القرن الخامس الهجرى، ويعد الجزء الخاص من وصف مصر فى رحلته من أكثر المصادر التاريخية إمتاعًا وأعظمها شأنًا فى بيان حال البلاد قبل القحط أو الشدة العظمى التى حلت بها فى نهاية عصر الخليفة المستنصر بالله.

أقام ناصر فى مصر فيما بين ٧ صفر ٤٣٩هـ وأواخر جمادى الثانى ٤٤٢هـ (١٠٤٧ - ١٠٥٠م) فكأنه أقام فيها ثلاث سنوات وثلاثة أشهر، ودون مشاهداته بدقة وإسهاب، فوصف الحياة العقلية وتحدث عن الأزهر ودار الحكمة وجامع عمرو وعن العلماء والفقهاء ودعاة الفواطم، كما أنه درس الحياة الاجتماعية عن كثب وأطنب فى التدليل على ثروة البلاد ورخائها، ووصف القاهرة وصفًا شائقًا كما أنه عرج على الفسطاط حيث كانت الحركة التجارية والصناعية فأسهب فى الكلام على أحوالها وبيوتها وجوامعها وحدائقها وصناعتها وأسواقها، كما أنه أشار إلى صناعة الخزف فى العصر الفاطمى، حتى أصبحت ملاحظاته وآراؤه عن الآثار والفنون فى رحلته مرجعًا أساسيًا للمشتغلين بالفن الإسلامى، فقال أن المصريين كانوا يصنعون أنواع الخزف المختلفة، وأن الخزف المصرى كان رقيقًا وشفافًا، والطريف أن ما وصل إلينا من التحف الفنية الفاطمية يؤيد تمامًا ما كتبه ناصر خسرو فى هذا الحقل.

جاء ناصر خسرو إلى مصر عن طريق شمالى سيناء مارًا بطينة وهى مرفأ للسفن ثم وصل إلى جزيرة تنيس التى وصفها الرحالة وصفًا مسهبًا، كانت تنيس من أجل مدائن مصر بالبحيرة التى تعرف اليوم باسم المنزلة، وكان لها تسعة عشر بابًا مصفحة بالحديد. وكان بها عدة مساجد - نحو مائة

وستين مسجدا - بكل مسجد منارة، وكان بها ستة وثلاثون حماما، وكان بها مائة معصرة للزيت والشيرج والقصب، وكان بها من الحوانيت ألفان وخمسمائة حانوت وكان بها من المناسج للقماش نحو خمسة آلاف منسج يصنعون بها الثياب الشرب التى لا يصنع مثلها فى الدنيا وكانوا ينسجون بها أثوابًا تسمى البدنة تنسج بالذهب صناعة محكمة يباع الثوب منها بمائة دينار، وكانت تحمل منها إلى بغداد، ولم تزل مدينة عامرة إلى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة (١١٧٧) حتى جاء إليها نحو أربعين مركبًا موسوقة جماعة من الفرنج فحاصروا أهلها، فلما أشرفوا على أهل المدينة هرب أهلها إلى ثغر دمياط وتركوا المدينة، فاستولى عليها الفرنج وملكوها ونهبوا ما فيها ثم ألقوا فيها النار فاحترقت كلها ثم أخذوا ما قدروا عليه من الغنائم وتركوا المدينة خرابًا ورحلوا عنها واستمرت على ذلك إلى سنة أربع وعشرين وستمائة (١٢٢٦) فى دولة الملك الكامل محمد بن أيوب فأمر بهدم ما بقى من سورها وبيوتها واستمرت خرابًا من يومئذ إلى الآن.

غادر ناصر مدينة تنيس وسارت سفينته فى النيل حتى وصل إلى الصالحية وكانت فى ذلك الحين تصنع السفن وتنقل العروض إلى مدينة مصر، ثم بلغ قرب القاهرة، وفى يوم الأحد السابع من صفر ٤٣٩ (٤ أغسطس ١٠٤٧م) كان بالقاهرة.

وإليك ما كتبه ناصر خسرو عن مصر والفسطاط:

«شيدت مصر على ربوة، وجانبها الشرقى جبلى يتكون من جبال حجرية غير عالية كالتلال، وفى طرف المدينة جامع ابن طولون - وهو مشيد على ربوة وله جدران محكمة، ولم أر أعظم منها غير جدار آمد وميافارقين.

وقد بناه أمير من أمراء العباسيين كان حاكمًا على مصر. وفى أيام الحاكم بأمر الله باعه أحد أحفاد ابن طولون بثلاثين ألف دينار مغربى. وبعد مدة شرعوا فى هدم المئذنة بحجة أنها لم تبع، فأرسل لهم الحاكم قائلاً: «لقد بعتمونى هذا المسجد فكيف تهدمونه؟» فأجابوا: «نحن لم نبع المئذنة» فأعطاهم خمسة آلاف دينار ثمنًا لها. وكان السلطان يصلى فى هذا المسجد طوال شهر رمضان، وأيام الجمع من بقية الشهور.

ومدينة مصر مشيدة على ربوة، خشية فيضان الماء عليها، وهذه الربوة كانت مغطاة، فى وقت ما، بأحجار كبيرة جدًا. فكسرت وسويت، ويقال للأماكن التى لم تسو «عقبة» وتبدو مصر كأنها جبل، حين ينظر إليها من بعيد.

وبمصر بيوت مكونة من أربع عشرة طبقة، وبيوت من سبع طبقات وسمعت من ثقات أن شخصًا غرس حديقة على سطح بيت من سبعة أدوار، وحمل إليها عجلا رباه فيها حتى بر، ونصب فيها ساقية كان هذا الثور يديرها ويرفع الماء إلى الحديقة من البئر، وزرع على هذا السطح شجر النارنج والموز وغيرهما. وقد أثمرت كلها، كما زرع فيها الورد والريحان وأنواع الزهور الأخرى.

وسمعت من تاجر ثقة أن بمصر دورًا كثيرة فيها حجرات للاستغلال - أى للإيجار - ومساحتها ثلاثون ذراعًا فى ثلاثين، وتسع ثلاثمائة وخمسين شخصًا، وهناك أسواق وشوارع تضاء فيها القناديل دائمًا لأن الضوء لا يصل إلى أرضها ويسير فيها الناس.

وفى مصر سبعة جوامع، غير جوامع القاهرة، والمدينتان متصلتان،

وفيهما معًا خمسة عشر جامعًا (مسجد جمعة) وذلك لتلقى خطبة الجمعة والصلاة فى كل حى منهما.

وفى وسط سوق مصر جامع يسمى «باب الفتوح» شيده عمرو بن العاص، أيام إمارته على مصر من قبل عمر بن الخطاب، وهذا المسجد قائم على أربعمائة عمود من الرخام. والجدار الذى عليه المحراب مغطى كله بألواح الرخام الأبيض التى كتب القرآن عليها بخط جميل، ويحيط بالمسجد، من جهاته الأربع، الأسواق، وعليها تفتح أبوابه ويقيم بهذا المسجد المدرسون والمقرئون، وهو مكان اجتماع سكان المدينة الكبيرة ولا يقل من فيه، فى أى وقت، عن خمسة آلاف، من طلاب العلم والغرباء والكتاب الذين يحررون الصكوك والعقود وغيرها. وقد اشترى الحاكم بأمر الله هذا المسجد من أبناء عمرو بن العاص، وكانوا قد ذهبوا إليه وقالوا: «نحن فقراء معوزون وقد بنى جدنا هذا المسجد فإذا أذن السلطان نهدمه ونبيع أحجاره ولبناته»، فاشتراه الحاكم بمائة ألف دينار، وأشهد على ذلك كل أهل مصر، ثم أدخل عليه عمارات كثيرة وعجيبة منها ثريا فضية لها ستة عشر جانبًا، كل جانب منها ذراع، ونصف دائرتها أربع وعشرون ذراعًا.

ويوقدون فى ليالى المواسم أكثر من سبعمائة قنديل. ويقال أن وزن هذه الثريا خمسة وعشرون قنطارًا فضية، كل قنطار مائة رطل وكل رطل أربعة وأربعون ومائة درهم. ويقال أنه حين تم صنعها لم يتسع لها باب من أبواب المسجد لكبرها، فخلعوا بابًا وأدخلوها منه ثم ردوا الباب مكانه. ويفرش هذا المسجد بعشر طبقات من الحصر الجميل الملون بعضها فوق بعض، ويضاء كل ليلة بأكثر من مائة قنديل. وفى هذا المسجد يجلس قاضى القضاة.

وعلى الجانب الشمالى للمسجد سوق يسمى «سوق القناديل» لا يعرف سوق مثلة فى أى بلد، وفيه كل ما فى العالم من طرائف. ورأيت هناك الأدوات التى تصنع من الذبل كالأوعية والأمشاط ومقابض السكاكين وغيرها. ورأيت كذلك معلمين مهرة ينحتون بلورًا غاية فى الجمال، وهم يحضرون من المغرب، وقيل أنه ظهر حديثًا عند بحر القلزم، بلور ألطف وأكثر شفافية من بلور المغرب، ورأيت أنياب الفيل أحضرت من زنجبار، وكان وزن كثير منها يزيد على مائتى منْ، كما أحضر جلد بقر من الحبشة، يشبه جلد النمر، ويعملون منه النعال. وقد جلبوا من الحبشة طائرًا أليفًا كبيرًا، به نقط بيضاء وعلى رأسه تاج مثل الطاووس، وتنتج مصر عسلاً وسكرًا كثيرًا. ورأيت فى يوم واحد هذه الفواكه والرياحين: الورد الأحمر والنيلوفر والنرجس والنرنج والنارنج والليمون والمركب والتفاح والياسمين والريحان الملكى والسفرجل والرمان والكمثرى والبطيخ والعطر والموز والزيتون والبليج (الأهليلج) والرطب والعنب وقصب السكر والباذنجان والقرع واللفت والكرنب والفول الأخضر والخيار والقثاء والبصل والثوم والجزر والبنجر.

وكل من يذكر كيف تجتمع هذه الأشياء، التى بعضها خريفى وبعضها ربيعى، وبعضها صيفى، وبعضها شتوى، لا يصدق هذا. ولكن ليس لى قصد فيما ذكرت، ولم أكتب إلا ما رأيت، وأما ما سمعته ثم كتبته، فليست عهدته علىَّ، وولاية مصر عظيمة الاتساع، بها كل أنواع الجو من البارد والحار. وتجلب كل الحاجيات لمدينة مصر من جميع البلاد ويباع بعضها فى الأسواق.

ويصنعون بمصر الفخار من كل نوع، وهو لطيف وشفاف بحيث إذا

وضعت يدك عليه من الخارج فظهرت من الداخل، وتصنع منه الكؤوس والأقداح والأطباق وغيرها وهم يلونونها بحيث تشبه البوقلمون فتظهر بلون مختلف فى كل جهة تكون بها، ويصنعون بمصر قوارير كالزبرجد فى الصفاء والنظافة ويبيعونها بالوزن.

وسمعت من بزاز ثقة أن وزن الدرهم الواحد من الخيط يشترى بثلاثة دنانير ونصف نيشابورية. وقد سألت فى نيشابور بكم يشترون أجود الخيط؟ فقالوا أن الخيط الذى لا نظير له يشترى الدرهم منه بخمسة دراهم.

ومدينة مصر ممتدة على شاطئ النيل الذى عليه القصور والمناظر الكثيرة بحيث إذا احتاجوا إلى الماء رفعوه بالحبال منالنيل، أما ماء المدينة فيحضره السقاءون من النيل أيضًا، ويحمله بعضهم على الإبل وبعضهم على كتفه ورأيت قدورًا من النحاس الدمشقى، كل واحد منها يسع ثلاثين منًا، وكانت من الطلاوة بحيث تظنها من ذهب. وقد حكوا لى أن امرأة تملك خمسة آلاف قدر وأنها تؤجد الواحد منها بدرهم فى الشهر، وينبغى أن يردها المستأجر سليمة.

وأمام مصر جزيرة، وسط النيل، كان عليها مدينة فى وقت ما، والجزيرة غربى المدينة، وبها مسجد جمعة وحدائق، وهى صخرة وسط النهر، تقسمه قسمين، كل منهما فى اتساع جيحون، ولكن أكثرها هدوءًا وبطئًا فى جريانه، وثبت بين الجزيرة والمدينة جسر من ست وثلاثين سفينة.

ويقع جزء من مدينة مصر على جانب النيل الآخر، ويسمونه الجيزة، وبها مسجد لصلاة الجمعة. ولكن ليس بها جسر، ولذا يعبر الناس بالزوارق أو بالمعابر وهى كثيرة فى مصر، أكثر مما فى بغداد أو البصرة.

وتجار مصر يصدقون فى كل ما يبيعون، وإذا كذب أحدهم على مشتر فإنه يوضع على جمل، ويعطى جرسًا بيده، ويطوف به فى المدينة وهو يدق الجرس وينادى قائلاً: قد كذبت وها أنا أعاقب، وكل من يقول الكذب فجزاؤه العقاب.

ويعطى التجار فى مصر، من بقالين وعطارين وبائعى خردوات الأوعية اللازمة لما يبيعون، من زجاج أو خزف أو ورق، حتى لا يحتاج المشترى أن يحمل معه وعاء.

ويستخرجون من بذور الفجل واللفت زيتًا للمصابيح يسمونه «الزيت الحار»، والسمسم هناك قليل وزيته عزيز، وزيت الزيتون رخيص. والفستق أغلى من اللوز ولا تزيد العشرة أمنان من اللوز المقشور على دينار واحد.

ويركب أهل السوق وأصحاب الدكاكين الحمر المسرجة فى ذهابهم وإيابهم من البيوت إلى السوق، وفى كل حى على رأس الشوارع، حمر كثيرة عليها برادع مزينة، يركبها من يريد، نظير أجر زهيد. وقيل أنه يوجد خمسون ألف بهيمة مسرجة تزين كل يوم وتكرى. ولا يركب الخيل إلا الجند والعسكر، فلا يركبها التجار أو القرويون أو أصحاب الحرف، ويركبها العلماء، ورأيت كثيرًا من الحمر البلق كالخيل بل أجمل.

وكان أهل مدينة مصر فى غنى عظيم حين كنت هناك.

وفى سنة تسع وثلاثين وأربعمائة (١٠٤٧م) ولد للسلطان ولد، فأمر الناس بإقامة الأفراح، فزينت المدينة والأسواق زينة لو وصفتها لما اعتقد بعض الناس صحة ما أقول، ولما صدقونى. فقد كانت دكاكين البزازين والصرافين

وغيرهم مملوءة بالذهب والجـواهر والنقد والأمتعة المخـتلفة، والملابس المذهبة والمقصبة، بحيث لا يوجد فيها متسع لمن يريد أن يجلس.

وكان الـناس جميـعًا يثـقون بالسـلطان، فلا يخـشون الجواسـيس ولا الغمازين مـعتمدين على أن السلطان لا يظلم أحـدًا ولا يطمع فى مال أحد. ورأيت أموالاً يملكها بعض المصريين ولو ذكرتهـا أو وصفتها لما صدقنى الناس فى فارس، فإنى لا أسـتطيع أن أحدد أموالهم أو أحصـرها. أما الأمن الذى رأيته هناك فإنى لم أره فى بلد من قبل.

وقد رأيت هناك نصرانيًا من سراة مصر، قيل أن مراكبه وأمواله وأملاكه لا يمكن أن تعد. وحدث فى سنة ما أن كان النيل ناقصًا، وكانت الغلة عزيزة فأرسل الوزير إلى هذا النصرانى وقال: «ليست السنة رخاء، والسلطان مشفق على الرعـيـة، فاعط مـا اسـتطعت من الغلة، إمـا نقدًا وإمـا قـرضًا» قـال النصـرانى: «أسـعد الله السلطـان والوزير إن لدى من الغلة، مـا يمكننى من إطعام أهل مـصر الخـبز ست سنوات». ولا شك أن سكان مـصر، فى ذلك الوقت، كانوا كثيرين، فإن سكان نيشـابور خمسهم مع الإسراف فى التقدير. وكل من يستطيع الحكم يدرك كم يـنبغى أن يكون لهذا الثرى لتـبلغ غلته هذا المقدار وأى سـلام كانت فيـه الرعيـة وأى عدل كان للسلطان، بـحيث يكون شعور الناس وأموالهم بهـذا القدر. لم يكن السلطان يظلم أو يجور على أحد ولا كان أحد من الرعية يخفى أو ينكر شيئًا مما يملك.

ورأيت هناك رباطًا يسمى «دار الوزير» لا يباع فـيه سوى القصب. وفى الدور الأسفل منه يجلس الخياطون وفـى الأعلى الرفاءون. وسألت القيم عن

أجرة هذا الرباط الكبير، فقال: كانت كل سنة عشرين ألف دينار مغربى، كل شهر ألف دينار. يعنى باثنى عشر ألف دينار فى السنة وقيل أن فى هذه المدينة مائتى رباط أكبر منه أو مثله.

* * *

الفسطاط

فى مشاهدات على بن سعيد

أديب كبير ورحالة قدم إلى مصر فى عام ١٢٤٦م، وبقى فيها فترة طويلة فوصف لنا أحوال الفسطاط والقاهرة فى أخريات أيام الأيوبيين والسنوات الأولى من حكم المماليك. نشأ فى بيئة أدبية خالصة، كما حرص أبوه على إعداده وتثقيفه، فأتيح له أن ينهض بإتمام كتاب «المغرب» الذى تعاقب على تأليفه ستة من أدباء الأندلس ألفوه بالموارثة فى مائة وخمسة عشر عامًا، تناولوه بالتنقيح والإضافة واحدًا بعد الآخر[١].

ولد بقلعة يحصب[٢] فى غرناطة سنة ٦١٠هـ/ ١٢١٣م - ١٤ من قبيلة يمنية احتل أبناؤها هذا المكان عند فتح الأندلس، نزل بالإسكندرية لما كان فى التاسعة والعشرين من عمره بصحبة والده وهما فى طريقهما إلى مكة، ويبدو أنه كان حسن الصحبة جميل العشرة وأنه خالط أدباء مصر وشعراءها وتعرف دخائلهم.

---

(١) مقدمة كتاب المغرب فى حلى المغرب للدكتور زكى محمد حسن ص م ١١. مطبعة كلية الآداب بجامعة القاهرة عام ١٩٥٣.

(٢) تعرف هذه القلعة باسم Alcalà la Real وعرفت أيضًا باسم قلعة بنى سعيد، المصدر السابق ص م ١٦.

وكان من حسن حظ على بن سعيد أن قدم إلى مصر سنة ٦٤٤ / ١٢٤٦م القاضى كمال الدين بن العديم رسولاً من الملك الناصر يوسف صاحب الشام إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب. ولم يكن ابن العديم قطب أهل العلم وزعيمهم فحسب ولكنه كان مقربًا من السلطان لمكان أسرته فى البلد جاهًا وعلمًا، واتصل على بن موسى بابن العديم فاختصه بمعروفه وآثره ببره، وزين له الرحلة إلى حلب ولقاء صاحبها الملك الناصر، فنشط على لفعل ذلك، وقصد إلى بلاط هذا الملك سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م وظل فى حلب تترادف عليه النعم إلى أن رحل منها سنة ٦٤٧ / ١٢٤٩م متجهًا إلى دمشق، ثم رحل إلى بغداد فى السنة التالية مارًا بأرمينية وأرجان، وحج بعد ذلك إلى بيت الله الحرام ورجع من الحجاز إلى تونس سنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م حيث نزل عند صديقه أبى العباس التيفاشى ونال الحظوة عند أبى عبد الله المستنصر بالله. وكان بلاط هذا الأمير مقصد العلماء والأدباء والسفراء منذ مد سلطان بنى حفص فى المغرب الأوسط، واتخذ لنفسه لقب «الخليفة» و«أمير المؤمنين» بعد سقوط بغداد فى يد التتر.

وحن على بن موسى بن سعيد إلى المشرق ثانية فرحل إليه سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م وسمع فى الإسكندرية بأعمال هولاكو، فأحب أن يسعى إليه، وسافر إلى حلب ومنها إلى أرمينية حيث أقام فيها مدة ضيفًا على هولاكو، ويبدو أنه أوغل فى هذه الرحلة نحو الشرق فوصل إلى إيران، ثم عاد إلى تونس وأمضى فيها بقية حياته إلى أن أدركته الوفاة فى الربع الأخير من القرن الثالث عشر.

قام ابن سعيد برحلات طويلة طويلة فى ديار الإسلام، وأفاد من مشاهداته فيما ألف من التاريخ وتقويم البلدان. والراجح أنه جال فى غربى أفريقية ورأى مصب نهر سنغال، وربما توغل فى كشف الساحل الأفريقى الغربى إلى أبعد مما كان معروفًا عند الأوروبيين حينذاك[١]. والحق أن لعلى ابن موسى بن سعيد منزلة سامية بين الجغرافيين المسلمين، ولكن حجبتها شهرته بين المؤرخين والأدباء، بل لقد كان واسع الاطلاع ودقيق الملاحظة فى هذا الميدان، بحيث سجل بعض الأحداث التى كان لها شأن عظيم فى تطور العمران والتى لم يفطن إليها غيره من المؤرخين والجغرافيين ومن ذلك ما كتبه من هجرات بعض سكان الهند الصينية وجزر الملايو إلى أفريقية الشرقية[٢].

والذين صنفوا كتاب «المغرب» ولا سيما على بن موسى بن سعيد - لم يفيدوا من المصنفات التى اطلعوا عليها ومن الرواية الشفوية فحسب، بل اعتمدوا على المشاهدة كل الاعتماد. والحق أن المشتغلين بالآثار والفنون الإسلامية يقدرون «كتاب المغرب» حق قدره، لما يفيدونه مما سجله فيه على بن موسى بن سعيد معتمدًا على المشاهدة. مصداق ذلك عنايتهم بما كتبه فى وصف الفسطاط والقاهرة، وكان على بن سعيد نفسه يرى أن للمشاهدة شأنًا عظيمًا فى العلم والمعرفة فكان يدون فى المناسبات المختلفة ما يؤيد ذلك. وسيبدو ذلك لنا فيما كتبه وهو يصف ما رآه فى الفسطاط والقاهرة.

جاء فى كتاب «الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط» من كتب المغرب فى حلى المغرب:

---

(١) زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ١٢١ - ١٢٢.

(٢) G. Ferrand: Relations des Voyages et Textes Geographiques Arabes Persans et Tures relatifs a l'Extreme - Orient. (Paris 1913 - 1914) t, II pp. 316 et seq.

من كتاب الكمائم[1]: وأما فسطاط مصر فإن مبانيها كانت فى القديم متصلة بمبانى مدينة عين شمس، وجاء الإسلام وبها مبنى يعرف بالقصر، حوله مساكن، وعليه نزل عمرو بن العاص وضرب فسطاطه حيث المسجد الجامع الآن المنسوب إليه، ثم لما فتحها قسم المنازل على القبائل، ونسبت المدينة إليه، فقيل فسطاط عمرو. وتداولت عليها بعد ذلك ولاة مصر، فاتخذوها (سرير السلطنة)، وتضاعفت عمارتها، فأقبل الناس من كل جانب إليها، وقصدوا أمانيهم عليها، إلى أن رسخت بها دولة بنى طولون، فبنوا إلى جانبها المنازل المعروفة بالقطائع، وبها كان مسجد ابن طولون الذى هو الآن إلى جانب القاهرة. وقد أمعنت السؤال عنها فأخبرت أنها مدينة مستطيلة، يمر النيل مع طولها، وتحط فى ساحلها المراكب الآتية من شمال النيل ومن جنوبه بأنواع الفوائد، ولها متنزهات. قال ابن سعيد: وسأذكرها فيما بعد. قال: وهى فى الإقليم الثالث، ولا ينزل فيها المطر إلا فى النادر، وترابها تثيره الرجل، وهو قبيح اللون، تتكدر منه أرجاؤها، ويسوء بسببه أهواؤها، ولها أسواق ضخمة إلا أنها ضيقة، ومبانيها بالقصب والطوب طبقة على طبقة، وقد بنيت القاهرة للخلفاء الإسماعيليين المتوثبين عليها من المغرب فضعفت مدينة الفسطاط وفرط فى الاغتباط بها بعد الإفراط، وبينهما نحو ميلين، وأنشدت فيها للشريف العقيلى:

(١) هذا الكتاب للبيهقى. وينقل عنه ابن سعيد هنا وفى كتاب القاهرة، وقد احتفظ المقريزى فى الخطط (طبعة بولاق سنة ١٢٧٠هـ) جـ١ ص ٣٤٠ بهذه الفقرة، واحتفظ بها أيضًا المقرى فى النفح (طبعة دوزى وزملائه) جـ١ ص ٦٨٥.

أحن إلى الفسطاط شوقًا وإننى

لأدعو لها أن لا يحل بها القطر

وهل فى الحيا من حاجة لجنابها

وفى كل قطر من جوانبها نهر

تبدت عروسًا والمقطم تاجها

ومن نيلها عقد كما انتظم الدر

كان خبرها (الفسطاط) قد ملأ سمعى من الكتب وما أتلقاه من الحجاج الصادرين وأنا واقف من شأنها بين اختلاف لقلة اتفاق الأغراض وتشتت الأهواء، فلما وصلت إلى الإسكندرية من إفريقية ركبت فى الخليج إلى النيل الأعظم، ثم سرت فيه إلى أن وصلت إلى منية السيرج فى شمالى القاهرة، فركبت منها فى البر إلى القاهرة، وعاينت ما سأذكره إن شاء الله فى كتاب القاهرة. ولما استقررت بالقاهرة تشوقت إلى معاينة الفسطاط، فسار معى إليها أحد أصحاب العزية (الغربة)، فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة لركوب من يسير إلى الفسطاط جملة عظيمة، فركبت منها حمارًا، وأشار إلى أن أركب حمارًا آخر، فأنفت من ذلك، جريًا على عادة ما خلفته من بلاد المغرب، فأعلمنى أنه غير معيب على أعيان مصر. وعاينت الفقهاء وأصحاب البزة والشارة الظاهرة يركبونها، فركبت فعندما استويت راكبًا أشار المكارى على الحمار فطار بى وأثار من الغبار الأسود ما أعمى عينى ودنس ثيابى وعانيت ما كرهته. ولقلة معرفتى بركوب الحمار وشدة عدوه على قانون لم أعهده، وقلة رفق المكارى، وقعت فى تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج وقلت:

لقـــيت بمثـــر أشـــد البـــوار

ركـوب الحـمـار وكـحل الغـبـار

وخلـفى مـكار يفـــــوق الـرياح

ولا يعـرف الرفق مـهمـا اسـتطار

أناديه مـــــهـــلا فـــلا يـرعـــوى

إلى أن سـجـدت سجـود العـثـار

وقـــد مـد فـــوقى رواق الثـــرى

والحـــد فـــيـه ضـــيـــاء النهـــار

فدفعت إلى المكارى أجرته، وقلت له: إحـسانك إلى أن تتركنى أمشى على رجلى ومـشـــيت إلى أن بلغـتـهـا، وقـدرت فى الطـريق بين القـاهرة والفسطاط، وحققته بعـد ذلك، نحو الميلين. ولما أقبلت على الفسطاط أدبرت عنى المسرة، وتأملت أسوارًا مثلمة سوداء، وآفـاقًا مغبرة، ودخلت من بابها، وهو دون غلق، يفضى إلى خراب معمور بمبان مشتـتة الوضع، غير مستقيمة الشوارع، قد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيـل، طبقة فوق طبقة، وحول أبوابهـا من التراب الأسـود والأزبال ما يقـبض نفس النظيف، ويغض طرف الظريف، فسرت وأنا معاين لاسـتصحاب تلك الحال إلى أن سرت فى أسواقها الضـيقة فقاسيت من ازدحام الناس فيـها بحوائج السوق والروايا التى على الجمال ما لا يفى به إلا مشاهداته ومـقاساته، إلى أن انتهيت إلى المسجد الجامع فـعانيت من ضـيق الأسواق التى حوله مـا ذكرت به ضـده فى جامع أشبيلية وجامع مراكش، ثم دخلت إليه فعاينت جـامعًا كبيرًا قديم البناء، غير

مزخرف ولا محتفل فى حصره التى تدور مع بعض حيطانه، وتبسط فيه. وأبصرت العامة رجالاً ونساء قد جعلوه معبراً بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب ليقرب عليهم الطريق، والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والكعك وما جرى مجرى ذلك، والناس يأكلون منه فى أمكنة عدة، غير محتشمين لجرى العادة عندهم بذلك، وعدة صبيان بأوانى ماء يطوفون على من يأكل، قد جعلوا ما يحصل لهم منها رزقا، وفضلات مأكلهم مطروحة فى صحن الجامع وفى زواياه. والعنكبوت قد عظم نسجه فى السقوف والأركان والحيطان. والصبيان يلعبون فى صحنه، وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العوام، إلا أن مع هذا كله، على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس ما لا تجده فى جاع أشبيلية مع زخرفته والبستان الذى فى صحنه، ولقد تأملت ما وجدته فيه من الارتياح والأنس دون منظر يوجب ذلك، فعلمت أنه سر مودع من وقوف الصحابة رضوان الله عليهم فى ساحته عند بنائه، واستحسنت ما أبصرته فيه من حلق المتعددين لقراءة القرآن والفقه والنحو فى عدة أماكن، وسألت عن موارد أرزاقهم، فأخبرت أنها من فروض فى الزكاة وما أشبه ذلك، ثم أخبرت أن اقتضاءها يصعب إلا بالجاه والتعب، فنغص عندى تلك القاعدة التى وجدتها من اجتماع العلماء على أرزاق تفرغ المعلم للتعليم، وتنشط المتعلم للاستفادة. ثم انفصلنا من هنالك إلى ساحل النيل، فرأيت ساحلاً كدر الربة غير نظيف، ولا متسع الساحة، ولا مستقيم الاستطالة، ولا عليه سور أبيض يبهج العيون بلونه وحسن استقامته، إلا أنه مع ذلك كثير العمار بالمراكب وأصناف الأرزاق التى تصل من جميع أقطار النيل، ولئن قلت إنى لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فإنى أقول حقًا. والنيل

هنالك ضيق يكون الجزيرة التى بنى فيها السلطان الديار المصرية الآن قلعته قد توسطت الماء ومالت إلى جهة الفسطاط، وبحسن سورها المبيض الشامخ حسن منظر الفرجة فى ذلك الساحل. وقد ذكر ابن حوقل الجسر الممتد من الفسطاط إلى الجزيرة وهو غير طويل، ومن الجانب الآخر إلى البر الغربى المعروف ببر الجيزة جسر آخر من الجزيرة إليه، وأكثر جواز الناس بأنفسهم ودوابهم فى المراكب، لأن هذين الجسرين قد احترما بحصولهما فى حيز قلعة السلطان. ولا يجوز أحد على الجسر الذى بين الفسطاط والجزيرة راكبًا احترامًا لموضع السلطان، وبتنا فى ليلة ذلك اليوم بطيارة[1] مرتفعة على جانب النيل، فقلت:

نزلنا من الفسطاط أرفع منزل

بحيث امتداد النيل قد دار كالعقد

وقد جمعت فيه المراكب سحرة

كسرب قطا أضحى يرف على ورد

وأصبح يطفو الموج فيه ويرتمى

ويطفو حنانا وهو يلعب بالنرد

غدا ماؤه كالريق ممن أحبه

فمدت عليه حلية من حلى الخد

(١) الطيارة نوع من القوارب كان يجرى فى أنهار العراق، وقد عرف منذ القرن الرابع الهجرى. راجع الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم متز، جـ ٢ ص ٣٣٣.

وقد كـان مثل الزهر من قـبل مده

فـــأصـــبح لمـا زاده المد كـــالورد

قلت هذا لأنى لم أذق فى الحـياة أحلـى من مائه، وأنه يكون قـبل المد الذييزيد به، فيفيض على أقطاره، أبيض، فإذا جـاء عباب النيل صار أحمر، وقد أكثر الشـعراء فى ذكر ذلك، وتقدم منه ما تقدم، وأنشـد فيه علم الدين فخر الترك أيدمر عتيق وزير الجزيرة فى مدح الفسطاط وأهلها:

حـــبـــذا الفـــسطـاط من والدة

جنـبت أولادها در الجـــــقـــــا

يرد إلـيـــــهـــــا النيـل كـــــدرا

فـــإذا مـا زج أهلـيـهـــا صـفـــا

لطـفـــوا فـــــالمزن لا يـألفـــــهم

فـــــجـــــلا لما رآهـم ألطفـــــا

ولم أر فى أهل البلاد ألطف من أهل الفـسطاط، حتى أنهم ألطف من أهل القاهرة، وبينهما نحو مـيلين. وجملة الحال أن أل الفسطاط فى نهاية من اللطافـة واللين فى الكـلام، وتحت ذلك من الملق وقلة المبـالاة برعـاية قـدر الصحابة، وكثرة الممازجة والألفـة ما يطول ذكره. ولقد تكررت إليها مرات. وصحبت فيها بتوالى السنين جملة ناس فـما فارقتها وأنا راض من أهلها بغير مكارم بنى القـسطلانى الفقهـاء المالكية، فـإنهم يصدقون ويـرعون الصحـبة ويوفون بالعهد ويؤدون الأمانة، لا تبرح الأضياف تفشى منازلهم على ما تيسر من مكارمـهم فى حالى اليسـر والعسـر، وهم فى ذلك طول الأيام، لازمين

طريقة واحدة فى الكرم والصبر. ورأيت من شاعرها جمال الدين أبى الحسين الجزار ما لم أره فى كثير من شعراء البلاد وأدبائها، فإنه فارقنى بعد صحبة سنين وأنا أشكره وأوده أكثر من شكرى وودى له فى أول سنة صحبته فيها. وطالما قصد القاهرة لاستدعائى إلى كرامته بالفسطاط، وبت عنده فى نهاية من السرور والانبساط، وكم سعى فى حقى وشهرة ذكرى، جزاه الله خيراً على بعد داره، ولا أسمع إلا ما يسر من أخباره.

وخرجت معه مرة إلى ظاهرة الفسطاط حيث بركة الحبشى التى يقول فيها أبو الصلت[1]:

لله يومى ببركة الحبش

ونحن بين الضياء والغبش

والنيل تحت الرياح مضطرب

كصارم فى يمين مرتعش

وعاينت من هذه البركة أيام فيض النيل عليها أبهج منظر، ثم زرتها أيام غاض معظم الماء وبقيت فيها مقطعات بين خضر من القرط والكتان تفتن الناظر، وفيها أقول:

يا بركة الحبش التى يومى بها

طول الزمان مبارك وسعيد

(١) هو أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى شاعر وأديب مشهور زار مصر سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥ - ١٠٩٦م وسجن بها ومكث فيها حوالى عشرين سنة وتوفى سنة ٥٢٨هـ..

حتى كأنك فى البسيطة جنة
وكأن دهرى كله بك عيد
بأحسن ما يبدو وبكر الكتانى فى
نواره أو زره معقود
والماء منك سيوفه مسلولة
والقرط فيك رواقه ممدود
يا ليت شعرى هل زمانك عائد
فالشوق فيه مبدىء ومعيد

وبت ليالى كثيرة بقرافة الفسطاط، وهى فى شرقيها، بها منازل لأعيان الفسطاط والقاهرة وقبور عليها مبان معنى بها، وفيها القبة العظيمة العالية الزمخرفة التى فيها قبر الإمام الشافعى رحمة الله عليه، وبها مسجد جامع، وترب كثيرة عليها أوقاف للقراء ومدرسة كبيرة للشافعية ولا تكاد تخلو من طرب ولا سيما فى الليالى القمرية، وهى معظم مجتمعات أهل مصر، وأشهر متنزهاتهم، وفيها أقول:

إذ القرافة قد حوت ضدين من
دنيا وأخرى فهى نعم المنزل
يغشى الخليع بها السماع مواصلا
ويطوف حول قبورها المتبتل

كم لـيلة بتـنا بهـــا ومـــدامـنا

لحـن يكـاد يـذوب مـنه الجـنـدل

والبـدر قـد مـلأ البـــسـيطة نوره

فكأنما قـــد فـاض فـيـهـــا جـدو

وبدا يضـاحك أوجـها حـاكـيتـه

لما تـكامل وجـــهـــه المتـــهـلل

وأمـا ما يرد على الفـسطاط من متـاجـر البحـر الإسكندرانى والبحـر الحجازى فإنه فوق ما يوصف، وبها مجمع ذلك لا بالقاهرة، ومنها يجهز إلى القاهرة وسائر البلاد. وبالفساط مطابخ السكر والصابون ومعظم ما يجرى هذا المجرى لأن القاهرة بنيت للاختصـاص بالجند، كما أن جميع «زى» الجند هو بالقاهرة أعظم منه بالفـسطاط، وكذلك ما ينسج ويصاغ وسـائر ما يعمل من الأشياء الرقيقة السلطانية. والخراب فى الفسطاط كثير. والقاهرة أجد وأعمر، وأكثـر زحمة، بسـبب انتقال السلطان لهـا، وسكنى الأجناد فيهـا. وقد نفخ روح الاعتناء والنمو فى مـدينة الفسطاط الآن. لمجاورتها للجزيرة الصـالحية. وكثير من الجند قـد انتقل إليها للقرب من الخدمة أو بنى على سـورها جماعة منهم مناظر تبهج الناظر. وفوق القرافة فى شـرقيها جبل المقطم وليس له علو ولا فيـه اخضـرار، وإنما يقصد لـلبركة، وفى سـفحـه مقابر أهل الـفسطاط والقاهرة.

* * *